

المسلمون والذميون والمعاهدون

الاحساس دليل الحياة !

التضامن رائد العمران !

(تابع ما قبله)

جاء في عرض كلامي عن الاقباط في الجلسة الماضية انهم يعاقبة واعتمدت على المقريري وابن خلدون وسائر المؤرخين . فلم ترق هذه الكلمة في عين حضرة صاحب المجلة القبطية فاستدركها وقال انهم ارثوذكس . ولكن رأي المقريري في ذلك يؤيده العلامة القبطي ابن البطريق وقد اعترف حضرته بذلك . فليكن الاقباط ارثوذكسا او ملكيين او ملكانيين او نساطرة او كاثوليك او بروتستانت او يعاقبة او موارنة او مرقولية وليقولوا ما شاؤوا في اللاهوت والناسوت والحلول والاتحاد والميثية والاقنوم والطبيعة فانما هم مصريون قبل كل شيء . وتلك امور داخلية وعقائد تعبدية ليس لها مساس بموضوعنا الذي نحن فيه اليوم . ولكنني لا اترك هذه الفرصة دون الوقوف معه ومناقشته في قوله ان عددهم كان عند الفتح الاسلامي ثلاثين مليوناً . وغاية ما اقول ان عبارته عليها مسعة من المبالغة الشرقية التي لا مصداق لها سوى الخيال . انا لا احب المناظرة لانني اعتقد ان تولع الشرقيين بها قد اوجب ما نراهم عليه من التقهقر والانحطاط . ولكنني لا يعني ان امرئ على هذه الكلمة بدون احتجاج ولو كانت من غيره لكانت مما لا يؤبه له ولا يمتد به اما وقد صدرت من فاضل مشهور بالتدقيق والتحقيق معروف بسعة الاطلاع وكثرة النقيب فليس له ان يرسل القول جزافاً دون ان يعززه بدليل او بشبه دليل .

وقال ابن البطريق القبطي ان المتوفس اجتمع مع عمرو بن العاص على عهد بينهم واصطلحوا على ان يفرض على جميع من بصر من اعلاها الى اسفلها من القبط دينارين دينارين على كل نفس شربهم ووضيعهم ممن بلغ الحلم منهم وليس على الشيخ الفاني ولا على الصبي الصغير الذي لم يبلغ الحلم ولا النهي شيء واحصوا عدد القبط يومئذ خاصة ممن بلغ منهم فكانت جميع من أحصي ستة آلاف الف انسان فكانت فرضتهم اثني عشر الف الف دينار وفرض عليهم هذين الدينارين ودفع ذلك عن ارقابهم بالايمان المؤكدة وقد اجمع المؤرخون من المسلمين وغير المسلمين على ان رجال مصر البائسين لم يربدوا في

ذلك العهد عن سنة ملايين . وليس يصح في الاحلام ان يقال ان النساء والاطفال والشيوخ الفانين كان عددهم اربعة وعشرين مليوناً اي اربعة اضعاف هذا العدد . وانا اقول ان الاقباط اهل دمة ووفاء فلا يصح ان يقال انهم داسوا في الحساب وخانو في الاحصاء فضلاً عن قيام العرب عليهم لان مصلحة الفاتحين كانت تقضي بزيادة عدد الروموس لتضاعف لهم الاموال وتبلغ الجزية ستين مليوناً من الدينارين بدلاً من اثني عشر الف الف دينار .

فمن اليوم في عصر النور والتحقيق واحبذا لو اننا نربأ بنفوسنا عن تلك المبالغات الشرقية . وسعيد بن البطريق هذا هو قبلي مصري قال المكين انه تولى بطريركية الاقباط فكان في ايامه شقاق كثير وشر متصل بينه وبين شعبة ادى تجمعهم بن طنج صاحب مصر الى ارسال قائدهم قواده الى نينس نغم على الكنائس وما بها وكان فيها شي لا كثير من الذخائر حتى ان ذهبها وفضتها وزنت بالقيان لكثرتها وعبي القائد جميعها في الاقفاص وتوجه بها الى مصر فمضى اسقف نينس الى جماعة الكتاب فنوسلوا لدى الامير واسنقر الرأي على اعادة كل هذه الذخائر في نظير خمسة آلاف دينار فباعوا من الاوقاف والعقارات التي لا كنائس بقيمة المبلغ وحملوه اليه وبلغ الاخشيذ ان الاسقف باع الاملاك بدون قيمتها فارسل الى نينس وطالب المشتريين بفرق الثمن . فلما علموا ان شقاقهم اوجب هذا اصططخوا واجتمعوا في كنيسة واحدة . كان مولده في يوم الاحد لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٢٦٣ وبني اول سنة من خلافة القاهر العباسي صار بطريركاً على اسكندرية وسمي اوتوشيوخس Eutichius وذلك في ٨ صفر سنة ٣٢١ وبقي في الكرسي والرئاسة سبع سنين ونصفاً ثم اصابه اسهال بمصر فحدث انها علة موته فصار الى كرسيه بالاسكندرية واقام به عدة ايام عليلًا ونجح في آخر رجب سنة ٣٢٨

والبطريرك تعريب اللفظ رومي معناه ابو الأسرة اورب البيت قال المسعودي في كتاب التنبيه والاشراف انه بالرومية بطريار كس تفسيره رئيس الآباء ثم خفف وقد سماه المسعودي والاسلاميون بطريخ ثم بطريرك ثم خفف في الاستعمال فصرنا نقول بطرك ونكتبها بطريرك كما نقول جنبيه ونكتب جنبواي وكانوا يكتبون جنبيه وكما نقول ابشيه وابشاي ونكتب ابشواي وكانوا قبلنا يكتبون ابشويه وكما نقول ييه ونكتب بك وهكذا . واما البطريق فهو تعريب للفظه رومية هي Patrice لا Patricien كما جاء في دائرة المعارف الثانية . فان لفظه Patricien هي خاصة بفرق الاعيان عند الرومان اهل رومية واما Patrice فهي عنوان على المنقلب بوظيفة كبيرى في الادارة او في العسكرية عند الروم اهل القسطنطينية وهم الذين كان لهم العرب اشبايك واستلطا وعندهم عربوا هذه الكلمة

بالقطة بطريق . وان كانت اللفظتان مشتقتين من مادة واحدة لكن الاصطلاح لم يكن واحداً عند الامتين . فاذا جمعوا اسم اصحاب الوظيفة الدينية قالوا بطاركة واذا جمعوا اسم اصحاب الوظيفة المدنية او العسكرية قالوا البطارقة . وقد يخلطون بينهما في الجمع كما قال المستهترون بحقيقة الالفاظ العربية « اسم اعجمي العيب به كيف شئت »

وقد كان ابن البطريق صاحبنا معاصراً للإمام المسعودي وصديقاً له وقد اجتمعا معاً بالفسطاط . قال في التنبيه والاشراف مانصه : « واحد من كتاب رأيت له الملكية في تاريخ الملوك والانبياء والامم والبلدان وغير ذلك كتاب محبوب من قسطنطين النجفي وكتاب سعيد بن البطريق المعروف بابن الفراس المصري بطريرك كرسي ماركس بالاسكندرية وقد شاهدناه بفسطاط مصر انتهى بتصنيفه الى خلافة الرازي » . وقد اشتهر بين المسلمين كثير من النصارى بهذا الاسم فاولم ابن بطريق النصراني الذي كان امين سر سليمان بن عبد الملك الخليفة الاوي بدمشق . كما كان مرجون بن منصور الرومي النصراني امين سر من قبله الخلائف معاوية بن ابي سفيان ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم . وكان في ايام ابي الدوائق المنصور العباسي رجل اسمه البطريق امره بنقل اشياء من الكتب القديمة . واشتهر في ايام المأمون رجل اسمه يحيى بن البطريق كان في جملة الحسن بن سهل وتحت رعايته وكان لا يعرف العربية حتى معرفتها ولا اليونانية وانما كان علباً باللغة اللاتينية وهو من جملة الوفد الذي ارسله المأمون الى ملك الروم عندما غلبه واستظهر عليه وتوالت بينهما المراسلات فكتب اليه المأمون يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فاجاب الملك الى ذلك بعد امتناع فاخرج لذلك جماعة منم الحاجاج بن مطر ومسلم (سلم) صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل وقيل ان صاحبنا بوحنا بن ماسويه الذي وصف احسن دواء لاوجاع المائدة كان من جملة ذلك الوفد . وقد نقل ابن البطريق هذا واسمه يحيى من موافقات ارسطوطاليس الى العربي كتاب السماء والعالم وهو في اربع مقالات وكتاب الحيوان وهو تسع عشرة مقالة وخلص جوامع كتابه في النفس واصله في ثلاث مقالات ثم نقل الى العربي ايضاً كتاب البرسام للاسكندروس الطبيب الذي كان قبل جالينوس . وقد ارسله المأمون في مهمة اخرى للبحث على كتاب لارسطو . وعندني نسخة من كتاب بخط اليد عنوانه كتاب السياسة في تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار وهو من الكتب المنسوبة لارسطو وقد ترجمه ابن البطريق هذا الى اللغة العربية واليك ما قاله في مقدمته مخاطباً للمأمون :

« بسم الله الرحمن الرحيم » رب يسر

اما بعد اصلح الله امير المؤمنين وابده على حماية الدين والرعاية لاحوال المسلمين فان عبده امثل امره والتزم ما حده عن كتاب السياسة في تدبير الرياسة المعروف بسر الاسرار الذي افه القياسوف الحكيم الفاضل ارسطوطاليس لتلميذه الملك الاعظم الاسكندر المعروف بذي القرنين حين كبر سنه وضعفت قوته عن الغزو معه . وكان الاسكندر قد استوزره واصطفاه لما كان عليه من صحة الرأي واتساع العلم وقوة الفهم ونفرد به بالخلال السنية والسياسة المرضية والعلوم الالهية مع التمسك بالورع والتقى والتواضع وحب العدل وايتار الصبر فلم يدع الترجمان يحيى بن البطريق هيكلًا من الهياكل التي اودعت الحكماء فيها اسرارها الا اتاه ولاعظيًا من عظماء الرهبان الذين لطفوا (انقطعوا) لمعرفة الا اناؤه وقصده وانفاه حتى وصل هيكل عبدة الشمس الذي كان بناء هرميس الاكبر لنفسه فظفر فيه بناسك مترهب ذي علم بارع وفهم ثاقب فتلف به واستنزله واعمل الحيلة حتى اباح له المصاحف المودعة فيه فوجد في جملتها الكتاب المطلوب الذي كان امره امير المؤمنين ابله مكتوبًا في رق مصبوغ بالزفير بالذهب المحلول منقوشًا بالفضة البيضاء المحلولة . فرجع الى الحضرة المتصورة ظافرًا بالمراد . فمى بعون الله وبسعد امير المؤمنين وجده في ترجمته ونقله من اللسان اليوناني الى اللسان العربي .

افرايتم كيف انطرق بنا الحديث والحديث ذو شجون من ابن البطريق المصري الى سميح البغدادي الى الخليفة المأمون . وهل علمت ان هذا الخليفة ورد على وادي النيل وكان له في رحلته بها شوون يالها من شوون .

ففي سنة ٢١٧ هجرية وقع امران عظيمان اضارب لهما بال المأمون ولم ير في احد من اهله ولا من ذوي عمله الكفاة لهما فندب نفسه وعزم على الخروج من بغداد . وذلك ان ملك الروم كتب اليه يسأله الموادة والمهادنة وبدأ في كتابته بنفسه وكانت قد حصلت بمصر فتنة عظيمة واضطرب امرها . فعزم المأمون على الخروج لغزو ملك الروم ولاصلاح ذات البين بمصر . فأمر بعقد الولاية السود وهي شعار بني العباس كما تعلمون (ونقول بهذه المناسبة ان بني العباس كان لهم لواءان فالابيض يعقدونه لمن يولونه الاعمال والحكومات واما الاسود فهو خاص يعقدونه لولاية العهد على الخلافة) ثم امر بجمع المسودة وهم جيوش بني العباس وشعارهم السود .

وقيل ان اسوق اليكم الحديث عما جمعه من شوارد هذه الرحلة العجيبة اخبركم يا بني امي ويا بني عمي بامر هو من باب التحصيل الحاصل فانتم تعلمون جميعًا ان اهل مصر عمومًا

يهيئون بالبصل غراماً نستوي في ذلك الطائفتان الصغرى والكبرى . بل ان بني اسرائيل حينما هاموا في التيه ولم يجدوا عن البصل من يبدل ولم يعثروا له على شبيه حردوا على موسى الكليم . وبما اننا سنخسر ركاب المأمون فلا بأس من ذكر نادرة من نوادر الكثرة في اكرامه للعلماء حتى ولو كانوا ممن يأكلون البصل والثوم ويشربون النبيذ ويقرمون الخنزير الحنيد .

فقد كان بلغه قبل ذلك ان الشيخ الجليل كثوم بن عمرو العتابي قد توفي ثم بلغه انه لا يزال على قيد الحياة وهو من اكابر الشعراء المترسلين وافاضل البلغاء المطبوعين فارسل اليه ليناديه قبل سفره حتى لا نفوته بحالته اذا مات الرجل وهو في الغزاة او في مصر فلما دخل عليه ادناه وقربه حتى قرب منه فقبل العتابي يده ثم امره بالجلوس فجلس وكان اسحاق ابن ابراهيم الموصلني نديم الخلفاء ونادرة الزمان حاضراً فقال له المأمون : بلغني وفانك فضاءتني ثم بلغتني وفادتك فسررتني . فقال العتابي : يا امير المؤمنين لو قسمت هاتان السكتان على اهل الارض لوسعتها فاضلاً وانعاماً وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له امنية ولا يسقط لسواء امل لانه لا دين الا بك ولا دنيا الا معك . فقال له : سلمي . فقال : يدك بالعطاء اطلق من اسأني بالسؤال . فوصله صلات سنية وبلغ به من التقديم والاكرام اعلى محل . ثم اقبل عليه يسأله عن حاله وهو يجيبه بلسان ذلق طلق فاستظرفه المأمون واقبل عليه بالمداعبة والمزاح فظن العتابي وكان شيخاً جليلاً نبيلاً انه استخف به . فقال : يا امير المؤمنين الالباس قبل الالباس . وهذا مثل مشهور ولكن المأمون اشتبه عليه قول الرجل فنظر الى نديمه اسحاق مسخفاً فاولموا اليه وغمزوه على معناه حتى فهم . فقال : يا غلام الف دينار . فأتى بالذهب وصبه بين يدي الاديب . ثم اخذوا في المفاوضة والحديث وغمز المأمون اسحاق بن ابراهيم الموصلني عليه فجعل العتابي لا يأخذ في شيء الا عارضه فيه اسحاق وزاد عليه . وبقي العتابي يزداد عجبه من اسحاق حتى لم يطق عليه صبراً . فقال : يا امير المؤمنين اتأذن لي في سؤال هذا الشيخ عن اسمه ؟ قال : نعم . فقال : يا شيخ من انت وما اسمك ؟ قال : انا من الناس واسمي «كل بصل» فنبسم العتابي وقال : اما النسبة معروفة واما الاسم فتفكر . وما كل بصل من الاسماء ؟ فقال اسحاق : ما اقل انصافك ! انكر ان يكون اسمي كل بصل واسمك كل ثوم وكل ثوم من الاسماء ؟ اوليس البصل اطيب من الثوم . فقال كثوم العتابي : لله درك فما احببك ! يا امير المؤمنين ما رأيت كاشيخ قط . اتأذن لي في صلته بما وصلني به فقد والله غلبني . فقال المأمون : بل ذلك موفر عليك فنأمر له بذلك . فقال اسحاق : اما اذا قررت بهذه فتوهمني تجدني . قال : ما اخذك الا الشيخ الذي

يشأه الينا خبره من العراق ويعرف بابن الموصل . قال : انا حيث ظننت ، فاقبل العتابي عليه بالتحية والسلام فقال المأمون وقد طال الحديث بينهما : اما اذ قد افقتما على المودة فانصرفا سالمين .

وخرج المأمون من بغداد بجيشه وجحافلته حتى دخل بلاد الروم غازياً لينقم من ملكها الذي قدم نفسه عليه في المخاطبة وهناك ثنات اليه الاخبار باستئصال الثورة في مصر وتعاضل الخطب ونفاذ الامر حتى خرج أهلها من مسلمين واقباط عن طاعة الخليفة لما ناهى على السواء من ظلم عامله عليهم وهو عيسى بن منصور الرافعي . فامتنع المصريون كافة عن وزن الخراج وطردوا العمال . فترك جنوده يبلاد الروم لمحاصرة القلاع وتعيم الغزاة . وسأبته في طريقه خطوة خطوة واذ كرماء فعله يبلادنا خير الاقباط والمسلمين وما ابقاء فيها من المأثر التي طوي ذكرها وطمس خبرها ونسوي امرها الى ان يخرج من وادي النيل مرموقاً بالعيون مشيعاً بالقلوب محموداً من جميع الشعوب

ذهب المأمون الى الشام فاشتاق للشامة فطلب رجلاً شامياً لمجانسته ومحدثه فادخل له خواصه ادبياً منهم وقالوا له : يا شامي انت داخل على امير المؤمنين فلا تسأله عن شيء حتى يتدبرك فانا اعرف الناس بمسالككم يا اهل الشام . فقال لا اتجاوز امركم . فلما استنداه المأمون وكان على شغله من الشراب فقال له : افى اردتكم لجالسي ومحدثي فقال الشامي : يا امير المؤمنين ان الجليس اذا كانت ثيابه دون ثياب جلسه دخله لذلك غضاضة فأمر له بخلع . فدخل الذي ادخله غضاضة ورعدة شديدة من هذا التهم . فلما لبس الشامي الخلع ورجع الى مجلسه قال يا امير المؤمنين : ان قلبي اذا كانت متعلقاً بعيالي لم تنتفع بمحدثي . قال الخليفة : احملا الى منزله خمسين الفا . فقال الشامي ولي عليك يا امير المؤمنين خصلة ثالثة ارجو ان نتم بها ايضاً . قال : وما هي . قال قد دعوت بشيء يحول بين المرء وعقله فان كانت مني هنة فاغفرها . قال : حباً وكرامة . فكانت الثالثة برداً وسلاماً على الدين ادخلوه وعجبوا من حلم المأمون وكرمه .

وقد اغتنم الخليفة فرصة وجوده في الشام لتحقيق مقدار السنة الشمسية فرصد ذلك بدار الرصد بدمشق المعروفة بالشامسة وكانت له دار رصد اخرى ببغداد .

فلما كان في دمشق قل المال عنده حتى اضاق فشكا ذلك لاختيه المعتصم الذي تولى الخلافة بعده وكان المعتصم قد ورده الخبر بان ثلاثين الف الف قد حملت اليه من خراج الاعمال التي يتولاها المأمون فقال له : يا امير المؤمنين كأنك بالمال قد وافاك بعد جمعة . فلما ورد خرج المأمون والقاضي يحيى وجوه خاصته وسائر الناس لاستشرافه فوردت الصناديق

محمولة على ابا عر باحلاس موشاة وجلال مزوقة وعليها شقق الحرير الصيني الاحمر والاخضر والاصفر فكان منظرها يروق العيون يأخذ بجامع القلوب فضلاً عن العجب بما عليها من الذهب . فقال المأمون ليحيى : هل تعلم ان ينصرف اصحابنا هؤلاء خائبيت الى منازلهم و ينصرف نحن بهذه الاموال قد تملكناها دونهم انا اذاً للثام . ثم دعا كاتبه فقال : توقع لآل فلان بالف الف ولا لآل فلان بتبشلا ولا لآل فلان بخمسمائة الف وما زال كذلك حتى فرق اربعة وعشرين الفا ورجله في الركاب ثم امر بدفع الباقي للجنود . وكان رجل من الكتاب حاضراً وهو العيشي صاحب ابني اسحاق التميمي فاخذ ينظر للمأمون ولا يرد طرفه عنه بحيث كان اخليفة لا يحول نظره الى جهة او يلتفت الى شيء الا وقعت عينه عليه فقال لكاتبه وقع لهذا بخمسين الف من الستة آلاف الالف لا يختلس ناظرى

ثم اتى مصر فكان كلما دخل قرية او مدينة ينزل على دكة قد بنيت لاجله ليكون مقامه مرتفعاً عن رطوبة الارض فنضرب له على الدكة قبة بسرادق عظيم وتقيم العساكر حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة فجاء عن طريق القروا وفيها حضرة الشعر فقال :

ليلك كانت بالمدا ب اقصر منه بالقروا

غربت في قري مصر بقاسمي الم والسدما

والسدوم هو المم مع الندم والحزن والغبط والميدان موضع ببغداد واسم لبلد بكورة سابور من اعمال فارس ولا شك انه تفكر انشا . وجوده بها في فتح قتال السويس الموجود فقد روى ابو عبد الله محمد بن علي بن محمد الشطبي (كذا) الاندلسي وقيل شهاب الدين احمد المقرئ القاسي في كتاب الجمان في مختصر اخبار الزمان المحفوظ منه نسخ متعددة بمكتبة باريس الاهلية انه سمى في توصيل البحر الاحمر (بحر القلزم) بالبحر الايض المتوسط (بحر الروم) ولكنهم صرفوه عن هذه العزيمة خوفاً من الروم على مكة والمدينة كما خوفوا عمر بن الخطاب من قبله وهو اول من فكر في ذلك في الاسلام . ومرو على دمياط ونزل عند قرية صغيرة اسمها بورة (وهي التي نسب اليها العمائم البورية والسلمك البوري) وقد انحلت هذه العمائم باندثار القرية ولا يزال السمت باقياً يستطيه المصريون الى الآن) فدخل عليه بكام القبطي من اعلمها وكان ذا ثروة واسعة فخطب من المأمون عمارة بورة فقال له اسلم فتكون مولاي وارليك فقال بكام : لامي المؤمنين عشرة آلاف مولى مسلم افلا يكون له مولى نصراني . فضحك منه المأمون وولاه عمالة بورة وما حولها . فبنى الرجل بها كنائس كثيرة حسناً وكان على باب داره المسجد الجامع فقال لاهل بورة من المسلمين انا ابني لكم مسجداً جامعاً غير هذا واهدموا هذا المسجد من على باب دارى فقالوا له ابن المسجد ونحن نصلي في هذا

حتى اذا فرغت من بنيان ذلك صليتنا فيه وهدمنا هذا المسجد . فبنى مسجداً كبيراً حسناً فلما فرغ منه قال لهم : فوالى بما وعدتوني فقالوا لا يجوز لنا في ديننا ان نهدم مسجداً قد صلينا فيه واذنا وجمعنا فبنى المسجد على حاله وصار في بورة مسجدان نقام فيها الجمعة فكان المسلمون يصلون الجمعة في هذا وجمعة في ذاك . وكان بكام في يوم الجمعة يلبس السواد شعار بني العباس ويقلد بالسيف والمنطقة ويركب برذونا وبين يديه اصحابه فاذا بلغ المسجد وقف ودخل خليفته وكان مسلماً فيسلي بالناس ويخطب باسم الخليفة . ثم استقر الخليفة في سيره حتى جاء الى قرية حقيرة فلم ينزل بها وهي طائل من مديرية الدقهلية وقد حرفنا اسمها تبعاً لاهلها فصار المشهور الآن (طنامل) وهما قريتان احدهما شرقية والاخرى غربية وكنتاها بعددان عن مدينة المتصورة نحو ثلاث ساعات ولم تكن المتصورة موجودة في عهد المأمون لان بناءها كان بعد ذلك في ايام الملك الكامل الايوبي اثناء هجمات الصليبيين على مصر . فلما مر على القرية لم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بنارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح . فلظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لا يعيش ابداً الا والترجمة بين يديه من كل جنس فذكر له ان القبطية قالت : يا امير المؤمنين نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك . وانا اسأل امير المؤمنين ان يشرفني بجوابه في ضيعتي ليكون لي الشرف ولعقبى ولا نشمت الاعداء في . وبكت بكاء كثيراً فرق لها المأمون وثني عنان فرسه اليها ونزل فجاء ولدها الى صاحب المظن وسأله : كم تحتاج من الغنم والدجاج والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة وغير ذلك مما جرت به العادة . فاحضر جميع ذلك اليه زيادة . وكان مع المأمون اخوه المعتصم وابنه العباس واولاد اخيه الواثق والمتوكل وبجى بن اكنم والقاضي احمد بن ابي دؤاد (١) فاحضرت القبطية لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ولم تكل احداً منهم ولا من القواد الى غيره . ثم احضرت المأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئاً كثيراً حتى انه استعظم ذلك . فلما اصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعهما عشر صائف مع كل وصيفة طبق فلما عابتهما المأمون من بعد قال لمن حضر : قد جاءكم القبطية بهدية الريف : انكاخ والصحناء والصير (٢) فلما وضعت ذلك بين يديه اذا في كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وامرها باعادته .

(١) كان خصيصاً بالمأمون حتى ضرب الادياء بذلك الامثال قال الفتح بن خاقان في كتاب مظهر الانفس ومسرحة الناس في اداء اهل الاندلس في ترجمة ابي بكر بن العربي عن ابيه ابي محمد ما نصه : واصطفاه معتمد بني عباد اصطفاه المأمون لابن ابي دؤاد

(٢) الطرشي والقرينة والمووجة ٢

فقال لا والله لا افعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذه والله أعجب ربما يعجز زيت مالنا عن مثل ذلك فقالت يا امير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحقر بنا فقال : ان في بعض ما صنعت الكفاية ولا تحب الثقل عليك فردي مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الارض وقالت يا امير المؤمنين هذا (وأشارت للذهب) من هذا (وأشارت للطين) ثم من عدلك يا امير المؤمنين وعندى من هذا شيء كثير فأمر به فأخذ منها واقطعها عدة ضياع واعطاها من قريبها طائفة مائتي فدان بغير خراج وانصرف متعجباً من كثرة مروءتها وسعة حالها

ثم سار حتى وصل الفسطاط عن طريق المطرية وعين شمس متبعاً في ذلك خط السير الذي اتبعه الجيش الاسلامي مع عمرو بن العاص في ايام الفتح في سنة ٢٠ هجرية فدخل الفسطاط في يوم الجمعة ٩ المحرم سنة ٣١٧ وكانت قد بنيت له قبة على الجبل المقطم فنزل فيها وكانت تسمى قبة الهواء وكان مع المأمون فراشون من النصارى فبعدت عليهم الكنائس التي في القصر فاستأذنوا المأمون في بناء كنيسة يصالون فيها تكون بالقرب من قبة الهواء فاذن لهم فبنوا من فضلات قبة الهواء كنيسة مرتفعة التي في القنطرة وهي التي عرفت في ما بعد بكنيسة الروم

وفي اثناء اقامته في الفسطاط ارسل ملك النوبة وفداً الى المأمون ذكروا عنه ان ناساً من مملكته وعبيده بأعوا ضياعاً من ضياعهم بان جاورهم من اهل اسوان وانها ضياعه والقوم عبيده ولا املاك لهم وانما تملكهم على هذه غلث العبيد العاملين فيها فقول المأمون على عامله باسوان تحقيق هذه المسألة وامره بالاستئناس بمعلومات من بها من الشيوخ واهل العلم فوصل الخبر الى اهل اسوان الذين اشتروا تلك الضياع وعلموا ان عدل المأمون سينزعها من ايديهم ويردها على صاحبها فاعملوا الحيلة حتى لا يضيع عليهم الثمن الذي دفعوه وتذهب عليهم الاعيان التي تملكوها فتقدموا الى البائعين من اهل النوبة وانفقوا معهم على انهم اذا احضرهم الحاكم المولى من قبل المأمون يقولون بانهم ليسوا عبيداً لملك النوبة وان يقولوا بحضرته وبحضرة الشيوخ والشهود والعدول : سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم . يجب علينا طاعته وترك المخالفة له فان كنتم انتم عبيداً لملككم واموالكم له فنحن كذلك . فلما جمع حاكم اسوان بين البائعين وبين رسول ملك النوبة والنائب عنه في هذه القضية المهمة اعتمدوا على هذه الحجج ونحوها مما لقنها لهم اصحاب الحظ والمصلحة في ثبوت البيع وفقاذه فصع البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم .

هذا وقد انشأ المأمون اثناء مقامه بمصر جسراً (كوبريا) يصل بين مصر القديمة

وبين جزيرة الروضة وانتقل الى المنيل فاعجبته هذه الجزيرة الجميلة فبنى بها جامعاً ومقياساً كما ذكره عبد الرشيد صالح بن نوري الباكوفي المولود في مدينة باكو من بلاد الروسيا وهو من اعيان القرن التاسع للهجرة في كتابه المسمى بتلخيص الآثار في عجائب الاقطار المحفوظ منه نسختان في مكتبة باريس الاهلية . ولم يتم هذا المقياس في ايام المأمون فاقمه المتوكل العباسي وهو الباقي الى اليوم . وقد كان القبط يتولون مقياس النيل الى ايام المتوكل سنة ٢٤٧ فتولاه المسلمون بعد تمام مقياس الروضة وأولم ابو الرداد المعلم الذي كان مؤثراً في جامع عمرو و يعلم الصبيان القرآن واستقرت هذه الوظيفة في ذريته حتى سنة ٩٣٨ . ويقول المتوكلون به في ايامنا هذه انهم من عقبه .

ثم عدى المأمون الى بر الجزيرة وذهب الى الاهرام . قال شيخ الربوة الصوفي الدمشقي في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر المطبوع في بطرسبورج ما نصه : ولم نزل همم الملوك قاصرة عن تعرف ما في هذين الهرمين الى ان ولي المأمون الخلافة وورد مصر فامر بفتح واحد ففتح بعد عناء طويل وانفق له لاعداء المعين على تحصيل عرضه ان فتح في مكان يملك منه الى الغرض المطلوب فانتهى بهم الطريق الى موضع مربع في وسطه حوض من رخام مقطعي فلما كشف عنه غطاؤه لم يوجد فيه الا رمة بالية قد انت عليها العصور الخالية فامر المأمون بالكف عما سواه . وباليات لو كان امر بفتح هرمين او ثلاثة من الاهرام الصغار المبثوثة غيرها لكي يبين الامر جلياً له وللناس .

وزوى المقريري عن صاحب تحفة الالباب ان المأمون اصعد بعضهم لتعرف ما بداخله وبعضهم لدرسه من الخارج .

فانقضى الذين صعدوا الى القبة التي في اعلى الهرم من الداخل الى قبة صغيرة فيها صورة آدمي من حجر اخضر كالدخيل فاخرجت الى المأمون فاذا هي مطبقة فلما فتحت وجد فيها جسد آدمي عليه درع من الذهب مزين بانواع الجواهر وعليه حلقة من ذهب قد بليت ولم يبق منها سوى سلوكها من الذهب وكان على هذه المومياء طلاء بمقدار شهر من المر والصبر وعلى صدره نصل سيف لا فية له وعند رأسه حجر ياقوت احمر كبيضة الدجاجة بضيء كلب النار فاحذاه المأمون وقال هذا خير من خراج الذهب . وقال كثير من المؤرخين ان هذا التمثال الاخضر لم يزل معالماً عند دار الملك بمدينة مصر الى سنة ٦١١ هجرية

واما الذين صعدوا فوقه فقد انتهوا الى قمته بعد ثلاث ساعات فوجدوا رأس الهرم قدر مبرك ثمانية جمال . وبناء على امر امير المؤمنين ارسلوا الى اسفله جبلاً فكان طوله الف ذراع بالذراع الملكي وهو ذراع وخمسان

وقد فاس المأمون تربع المرم فكان اربعائة ذراع في مثلها . ولقد اجمع مؤرخو العرب على ان المأمون توصل الى فتح هذا النقب الموجود الى يومنا هذا بعد جهد شديد وعناء طويل فكان بداخله مهاوي ومراقي يهول امرها ويعسر السلوك فيها وان النفقة على ذنبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة .

هذه هي الحقيقة التاريخية مجردة من المبالغات الشرقية . ولما كان امر الامرام قد بقي مكتوماً على الخاص والعام حتى فتحه المأمون فلا غرابة اذا رأينا اهل الشرق وهم مغرمون بالاوهام شطحوا مع نيار الخيال فلفقوا على ذلك افاصيص واساطير ما انزل الله بها من سلطان ولكنها لعمري الحق فيها عبرة بالغة وحكمة كبيرة لقوم يفقهون . ذلك ان كتاب العرب ارشدوا ارباب الالباب الى ان السعيد بن السعيد هو الذي يتوصل للمثور على ما يوازي نفقته عند تطلبه الكنوز والدفائن ولذلك قالوا بان المأمون وجد وراء الباب حوضاً من حجر مغلى بلوح من رخام وهو مملوء بالذهب وقالوا ان المأمون امر بحيسان ما صرف على النقب فبلغ قدر ما وجد في الحوض من غير زيادة ولا نقص .

ولعل هذا الرمز البديع يكون راجعاً لمن يتفق العمر والمال في تطلب الدفائن والكنوز والمطالب والخبايا فليس لكل الناس سعد كسعد المأمون وقد رأيناهم جميعاً يعودون بصفقة المغبون فلعلهم بعد هذا البيان يفكرون ويتدبرون ويسعون لاكتساب المال من طريقه المشروع وسبيله المأمون .

ثم توجه المأمون الى الصعيد فالحل ركابه بنسف حفرة الشعر في الحال فقال على سبيل الارتمجال:

سألت اطلال مصر عن عين شمس ومثني

فما احارت جواباً ولا اجابت بحرف

وسفي السكوت جواب لدي الفطنة يصفي

ثم استمر في سيره حتى وصل الى مدينة فقط من اعمال الصعيد بديرية فنا . ومن

لفظة فقط اشتق اسم القبط . ومنه اخذ الروم لفظة ايجبتوس للدلالة على مصر والمصريين

